فتح

مدينة القسطنطينية

(٨٥٧هـ - ١٤٥٣م)

تأليف

فهد بن عايش بن محمد الطيار

عضو النادي الأدبي بمنطقة تبوك

من إصدارات النادي الأدبي بمنطقة تبوك

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م

ⓒ النادي الأدبي بمنطقة تبوك ، ١٤٢٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الطيار ، فهد بن عايش

فتح مدينة القسطنطينية. – تبوك

... ص ؛ .. سم

ردمك : ٩ - ١٧ - ٨١٨ - ٩٩٦٠

١ - فتح القسطنطينية   أ – العنوان

ديوي ٩٥٣,٠٩   ٢٢ / ٤٠٥٣

رقم الإيداع : ٢٢ / ٤٠٥٣

ردمك : ٩ - ١٧ - ٨١٨ - ٩٩٦٠


بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى

محبي أمجاد

أمتهم الإسلامية

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين ، نبينا محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه أجمعين .. وبعد .

فلا أعتبر نفسي باحثاً ، أو مؤلفاً حين فكرت بطباعة مادة هذا الكتيب المتواضع . وكل ما في الأمر أنني قد قرأت في عدة كتب حول موضوع استهواني وهو « فتح مدينة القسطنطينية » وتبين لي عند قراءتي له عدم وجود كتاب واحد ـ من الكتب التي اطلعت عليها ـ جمع أهم عناصره الأمر الذي دفعني بأن أجمع متفرقاته في هذه الصفحات . وكان هدفي من ذلك التيسير على القارئ بأن يجد أهم عناصر هذا الموضوع في محيط واحد ولو باختصار ، وقد جعلته في خمسة فصول هي :

الفصل الأول : مدينة القسطنطينية (الموقع والنشأة).

الفصل الثاني : المحاولات الإسلامية الأولي لفتح مدينة القسطنطينية .

الفصل الثالث : أسباب فتح مدينة القسطنطينية .

الفصل الرابع : الحصار والفتح .

الفصل الخامس : صدى الفتح في العالمين الإسلامي والنصراني ونتائجه.

الفصل الأول

مدينة القسطنطينية

[الموقع والنشأة]



تحتل مدينة (القِسْطَنْطِينِيَة) « ويقال قسطنطينة باسقاط ياء النسبة » (١) موقعاً فريداً بين مدن العالم حيث تقع عند ملتقى القارتين آسيا وأوروبا ، وتحيط بها البحار من ثلاث جهات هي : البحر الأسود أو القرن الذهبي من الشمال ، ومضيق البسفور من الشرق، وبحر مرمرة من الجنوب ، وقد حباها الله بخصوبة الأرض وجودة الطقس ، كما تمتاز بأسباب القوة والمنعة . ولمدينة القِسْطَنْطِينِيَة ميناء القرن الذهبي الذي يعد أوسع وآمن ميناء في العالم . وكانت فوق ذلك مركزاً عظيماً للتجارة تأتيها السلع من البر والبحر على حدٍ سواء .

وقد أسس مدينة القِسْطَنْطِينِيَة باسم بيزنطة

---

(١) الحموي ، ياقوت ، معجم البلدان الجزء الرابع ، ص : ٣٥٩ .

ملاحون من (ميجـــارا) في عام ٦٥٧ ق م في الطرف الأقصى لأوروبا ، وحيث ينفتح مضيق البسفور على مرمرة [١] . وظلت تعرف باسم بيزنطة حتى عام ٣٣٠م حيث اتخذها الإمبراطور قسطنطين الأكبر(٣٠٦ - ٣٣٧م) عاصمة لبلاده وقد اهتم بها بأن نقل إليها الرخام الأبيض، والتماثيل من بلاد اليونان القديمة ونصبت أقواس النصر وبنيت الأسوار وأبواب المدينة وأعيد ترميم الباقي منها بتكاليف باهظة ، وبنيت فيها القصور الشامخة وعدد من الحمامات العامة ، وبعد أن تم بناء المدينة بجميع مرافقها العامة (افتتحت بحفل عظيم رهيب في ١١ مايو عام ٣٣٠م برئاسة الإمبراطور

---

[١] رنسيمان ، ستيفن . الحضارة البيزنطية ، ص : ٣ . / ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد .

قسطنطين وأطلق عليها اسم «روما الجديدة» ولكن الناس آثروا أن يطلقوا عليها اسم «القِسْطَنْطِيْنِيَة» تخليداً لذكر مؤسسها»(١) ، وتقول بعض المراجع بأن قسطنطين نفسه هو الذي أطلق عليها هذا الاسم (٢) .

وتوجه أرباب الثراء من جميع أنحاء العالم الروماني إلى هذه المدينة تاركين «روما» وباقي المدن القديمة عندما علموا باتخاذها عاصمة للامبراطورية الرومانية ، وعندما علموا ما تضمنته هذه المدينة من المشاريع الواسعة مصطحبين معهم ذويهم في بواخر محملة بأمتعتهم إلى هذه المدينة الجديدة ، وزاد عدد سكانها أضعافاً مضاعفة على ما كانت عليه قبل اتخاذها

---

(١) رنسيمان ، المرجع السابق ، ص : ٦

(٢) شلبي ، أحمد ، موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية . جـ ٥ . ص : ٦٧٦

عاصمة حيث فاقت روما نفسها .

ظلت مدينة القِسْطَنْطِيْنِيَةِ مدة طويلة عاصمة للإمبراطورية الرومانية الشرقية من ٣٣٠ - ١٤٥٣م ، وخط دفاع في وجه الشعوب المهددة للإمبراطورية غير النصرانية ، وخلال هذه الفترة ظهرت إحدى عشرة أسرة كبيرة حكمت الإمبراطورية كان بعضها حكيماً والآخر مفسداً . كان آخر هذه الأسر أسرة «قسطنطين الحادي عشر ١٤٤٩ - ١٤٥٣م» (١) آخر حكام مدينة القِسْطَنْطِيْنِيَةِ والذي سقطت مدينة القِسْطَنْطِيْنِيَةِ من يده في عام ١٤٥٣م - ٨٥٧هـ في أيدي العثمانيين حيث طويت آخر صفحات الدولة البيزنطية .

ولمدينة القِسْطَنْطِيْنِيَةِ أهمية كبرى من حيث

---

(١) عاشور ، سعيد عبد الفتاح . أوروبا العصور الوسطى ج ١ ، ص : ٦٥٦.

موقعها ، ولا أدل على ذلك من قول نابليون عنها حيث قال : « لو كانت الدنيا مملكة واحدة لكانت القِسْطَنْطِيْنِيَة أصلح المدن لتكون عاصمة لها » [1] .

وذكر نابليون في مذكراته التي كتبها عندما كان منفياً بسانت هيلين أنه حاول غير مرة أن يتفق مع دولة روسيا على اقتسام الامبراطورية التركية غير أن مدينة القِسْطَنْطِيْنِيَة كانت العقبة الكؤود دون الاتفاق ، لأن روسيا كانت تلح في امتلاك هذه المدينة ، ونابليون يصر على عدم تسليمها لأن هذه المدينة في نظره كانت تساوي إمبراطورية وهي بمثابة مفتاح العالم بأجمعه . ولو تم الاتفاق بين نابليون وروسيا على مصير هذه المدينة لتغير مجرى تاريخ العالم أجمع .

---

(١) الرشيدي ، سالم ، محمد الفاتح ، ص : ٥٤ .

وقد أدرك الغزاة والفاتحون منذ القدم أهمية هذه المدينة وخطورة موقعها فحاولوا الاستيلاء عليها وحاصروها مرات عديدة غير أنها استطاعت بمناعة موقعها وقوة حصونها أن تصد عن نفسها معظم الغزاة والفاتحين حتى جاء محمد الثاني « هو السلطان محمد بن السلطان مراد الثاني أشهر سلاطين الدولة العثمانية ، والذي خلف والده في السلطة عام ٨٥٥هـ ، ١٤٥١م ، وعرف من خلال سيرته أنه كان يجيد الفارسية والعربية واليونانية والسلافية ، وقد قرب إليه العلماء والأدباء والشعراء وأجزل لهم العطاء . أوصاه والده بفتح القِسْطَنْطِيْنِيَة ، فاجتهد ونجح في فتحها عام ٨٥٧ هـ ، ١٤٥٣م ، ولذا عرف بالفاتح لأهمية فتح هذه المدينة عاصمة الدولة البيزنطية ، وأطلق عليها إسلام بول

الذي يعني بالتركية عاصمة الإسلام » (١) ، وحطم أسطورتها واتخذها عاصمة لبلاده . ولا غرابة أن يتمكن محمد الثاني من فتح هذه المدينة إذا ما عرفنا أن من صفاته « العزيمة التي لا تلين أمام العقبات والصعاب ، والجرأة والإقدام اللذان لا يعترفان بالمستحيل ، والطموح الذي لا حد له » (٢)

والحقيقة التي يجب أن نقولها هي أن قيام مدينة القِسْطَنْطِيْنِيَةِ في هذه البقعة من العالم غيّر وجه التاريخ في الألف سنة التالية للأمور التالية :

١ - كان لقيام هذه المدينة الفضل على البابوية يتضح ذلك فيما وصلت إليه من مجد وعظمة في العصور

---

(١) عثمان ، إبراهيم القرشي وآخرون ، الموسوعة العربية العالمية ، الجزء (٢٢) ، ص : ٣٦٨ .

(٢) علي ، سيد رضوان ، السلطان محمد الفاتح ، ص : ١٥ .

الوسطى من التاريخ الأوروبي .

٢ ـ ولولا قدرة الله ثم قيام هذه المدينة لحرم الشرق الأوروبي من قيام تلك القلعة المنيعة التي كان لها الفضل الأكبر في الوقوف في وجه المسلمين حيث حالت دون غزوهم لشرق أوروبا قبل سقوطها في أيدي العثمانيين .

٣ ـ كان لقيام هذه المدينة فضل آخر يجب ذكره وهو أنها صارت حصناً للحضارة اليونانية وللدراسات والآداب والعلوم .

٤ ـ ولولا قدرة الله ثم قيام هذه المدينة لأدت غزوات العناصر السلافية لشبه جزيرة البلقان إلى اقتلاع جذور هذه الحضارة ، الأمر الذي يترتب عليه تغيير وجه التطور الحضاري لأوروبا .

الفصل الثاني

المحاولات الإسلامية الأولى لفتح مدينة القسطنطينية



ما أن ثبت المسلمون أقدامهم على أنقاض دولتي الفرس والروم في العراقين (العراق العربي والعجمي) وبلاد الشام حتى رموا بأبصارهم نحو مدينة القسطنطينية للاستيلاء عليها والسر في ذلك أنها العاصمة للدولة الرومية الشرقية. والعاصمة دائماً وأبداً هي هدف الأعداء لأنها إذا سقطت في أيديهم حل الرعب والهلع والفوضى والضعف في قلب شعبها، ومن ثم يسهل الاستيلاء على جميع أجزاء الدولة المُهاجمة لتحطيم قيادتها في العاصمة . والمسلمون لهم هدف من مهاجمة المدينة هو نشر الإسلام في أوروبا والذي يحول دون ذلك هو هذا الحصن المنيع المتمثل في مدينة القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية .

وقد شهد القرن الأول الهجري حملتين كبيرتين

وجهتهما الدولة الأموية من عاصمتها مدينة «دمشق» للاستيلاء على مدينة القسطنطينية :

(١) أولى هاتين الحملتين كانت في سنة ٤٨هـ وقيل سنة ٤٩ هـ في عهد معاوية بن أبي سفيان أول خلفاء بني أمية ، وكانت الحملة مكونة من جيوش برية وأخرى بحرية . والبحرية متمثلة في السفن التي استولى عليها المسلمون في موقعة «ذات الصواري» التي حدثت سنة ٣٤هـ .

وكانت هذه الجيوش البرية والبحرية بقيادة «سفيان بن عوف» وقد خرج معه رجال أجلاء منهم عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، وأبو أيوب الأنصاري (صحابي جليل استضاف الرسول ﷺ حين وصوله للمدينة مهاجراً من مكة

المكرمة ، ذهب في هذه الحملة للجهاد ، وتوفى أثناء حصار مدينة القسطنطينية سنة ٥٢ في هذه الحملة » .

وأسند معاوية بن أبي سفيان إمارة هذه الحملة لابنه يزيد) .

سارت هذه الحملة حتى بلغت أسوار مدينة القسطنطينية ودار قتال بين المسلمين والروم لم يستطع المسلمون أن يحققوا الهدف الذي جاءوا من أجله فاضطروا للعودة إلى الشام بعد أن فقدوا الكثير من جندهم وسفنهم لأمور نأتي على ذكرها في نهاية هذا الحديث .

(٢) الحملة الثانية بعد أن جاء الوليد بن عبد الملك إلى الحكم شرع في إرسال حملة أخرى لفتح مدينة القسطنطينية ولكن المنية عاجلته قبل تنفيذ مشروعه

هذا ، فلما جاء الخليفة سليمان بن عبد الملك نفذ هذه الحملة وكان قائدها مسلمة بن عبد الملك وهو رجل شجاع مشهود له بالصرامة ، وقد حققت الحملة في طريقها صوراً من النجاح ، ووصلت مدينة القسطنطينية وحاصرتها ولكنها لم تحقق هدفها الرئيسي وهو فتح مدينة القسطنطينية ، وظلت تحاصر المدينة حتى جاء الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز فأمر بفك هذا الحصار وأنقذ من بقي من أفراد الحملة من الجوع والبرد .

وفي العصر العباسي بُذِلت عدة محاولات لإسقاط هذه المدينة من يد البيزنطيين والاستيلاء عليها ، ولكن العباسيين لم يستطيعوا تحقيق ذلك لأمور منها :

١ ـ عدم اهتمام الخلفاء العباسيين بإنشاء أسطول قوي في البحر الأبيض المتوسط يضارع أسطول

الأمويين من قبل ، وفتح مدينة القسطنطينية لايتم إلا بأسطول بحري مجهز بالرجال والسلاح.

٢ ـ اتساع الامبراطورية الإسلامية وهذا يستلزم جهداً كبيراً للسيطرة عليها وتأمين حدودها .

٣ ـ مناوأة أهل الشام للعباسيين لأنهم كانوا لا يزالون على موالاتهم للأمويين .

٤ ـ أن العباسيين رأوا أنهم فقدوا الأندلس ، وأن بلاد أفريقيا تثير التمرد عليهم من حين لآخر فأدركوا أن من الخير لهم أن يتجهوا إلى السيطرة على ما في أيديهم وألا يشغلوا أنفسهم بأمور أخرى هم في غنى عنها .

٥ ـ كثرة الفتن والحركات الداخلية التي شغلت

العباسيين طوال عهدهم ، ولا يخفى على ذي بال ما للفتن الداخلية من آثار سلبية على الدولة . وقد اكتفى العباسيون بالإغارات ليوهموا الأعداء أنهم أقوياء وأنهم على أهبة الزحف عليهم والإيقاع بهم .

بعد هذا جاءت الخلافة العثمانية واستقرت في آسيا الصغرى ، ولاصقت الدولة الرومية التي عاصمتها مدينة القسطنطينية ، وقد أدرك العثمانيون لأول وهلة أهمية مدينة القسطنطينية وأول من أدرك أهميتها من العثمانيين السلطان الأول (عثمان) ـ المؤسس الأول للدولة العثمانية وإليه تنسب ـ ، حيث حاول الاستيلاء عليها ولكنه لم يبلغ القوة الكافية للخوض في هذه المغامرة التي لا يعرف نهايتها لهذا نجده أوصى لمن يأتي

بعده بفتح هذه المدينة ، وقد حاصرها السلطان العثماني «بايزيد الأول سنة ١٣٩٥م » وحاصرها كذلك إبنه موسى والسلطان مراد الثاني ، ولكنهم لم يوفقوا لفتحها حتى جاء السلطان محمد الثاني فاستطاع بما أظهره من إحكام القيادة والسيطرة وحسن التنظيم وسرعة الخاطر ، وقوة العزيمة والمصابرة والجلد في الحصار والقتال وما توفر له من عتاد ورجال أن يصل إلى فتح هذه المدينة ويحقق بذلك حلم الفاتحين كما استطاع أن يحقق البشارة النبوية « لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش » (١) .

إذن وقفت مدينة القسطنطينية صامدة شامخة مرفوعة الرأس في وجه الحملات التي وجهت لحصارها

---

(١) ابن حنبل ، أحمد ، المسند ، ص : ١٣٨٦ .

فما العوامل التي ساعدت على ذلك الوقوف ؟

نستطيع أن نلخص هذه العوامل في نقاط منها :

١ ـ موقع المدينة الحصين جغرافيا إذ أنه من المعروف أن البحار تحيط بها من ثلاث جهات كما أسلفنا ذلك (البسفور ، مرمرة ، القرن الذهبي) .

٢ ـ أسوار المدينة المنيعة التي أكسبتها قوة نادرة في وجه الغزاة والفاتحين وقتاً طويلاً من الزمن.

٣ ـ فتك النار الإغريقية [١] في جموع المحاصرين من رجال وعتاد ، وهذه النار تعتبر من الأسلحة الفتاكة آنذاك .

٤ ـ تفاني أهلها في الدفاع عنها وبذلهم الغالي

---

(١) مخترع النار الاغريقية مهندس يوناني اسمه (كالينيكوس) التاريخ السياسي ، ماجد ، عبد المنعم ، ص : ٤٨ .

والنفيس في الدفاع عن مدينتهم ، ولا غرابة في ذلك فمصيرهم متعلق بما تؤول إليه هذه المدينة .

٥ ـ جوها البارد الذي فتك بالمسلمين في الحملتين الأوليين لأنهم لم يتعودوا البرودة حيث إنهم تعودوا على المناخ الحار مناخ موطنهم الأصلي شبه الجزيرة العربية .

٦ ـ تأثير الأمواج والتيارات البحرية والرياح على سفن المسلمين التي أتلفت الكثير منها .

٧ ـ الجوع وشظف العيش الذي حل بالمسلمين طوال الحصار نتيجة قلة الإمدادات الناتجة عن ضعف الامكانات .

٨ ـ بعد المسافة التي اخترقها المسلمون للوصول لهذه المدينة وهذا كاف لإنهاك قواهم الجسدية .

٩ ـ أن المسلمين لم يطوقوا المدينة من جميع الجهات فقد تركوا ثغرات واسعة بدون حراسة ، ولعل ذلك يرجع إلى عدم إلمامهم بمداخلها .

الفصل الثالث

أسباب فتح مدينة القسطنطينية



لم أجد كتاباً واحداً من المراجع التي اطلعت عليها يتحدث عن الأسباب مجتمعة ، وإنما بفضل الله أولاً ثم بفضل القراءة المستمرة في عدة مراجع خلصت إلى الأسباب الآتية :

(١) ضعف الدولة البيزنطية وتضاؤلها ، وهذا يتيح للدولة العثمانية مهاجمة عاصمتها وبالتالي سقوط الدولة البيزنطية بكاملها .

(٢) لأن مدينة القسطنطينية هي العاصمة ، والعاصمة دائماً وأبداً منذ عُرفت الحروب هي الهدف الأول لأن سقوط العاصمة يعني سقوط الدولة . وهذا ما كان يهدف له المسلمون في مهاجمتهم لمدينة القسطنطينية منذ أول حملة أعدوها إلى آخر حملة .

(٣) طمع العثمانيين في التوسع على حساب غيرهم وامتلاكهم أراضٍ جديدة لنشر الإسلام ، وتأمين حدود دولتهم .

(٤) كانت مدينة القسطنطينية تفتح أبوابها لكل خارج على الدولة العثمانية كما كانت تعتقل الأمراء العثمانيين وتطلقهم في اللحظة المواتية وتجر على الدولة العثمانية بذلك حرباً أهلية دامية . وهذا السبب يعتبر من الأسباب المباشرة لحصار المدينة وفتحها .

(٥) أدرك محمد الثاني نفسه أنه لن يستقر له أمن ولا طمأنينة ما بقيت مدينة القسطنطينية بيد غيره لأهميتها السياسية والجغرافية .

(٦) ممالأة هذه المدينة للصليبيين قبل معركة «وارنه»

وكان من الخطة المرسومة أن تدلف السفن النصرانية إلى بحر مرمرة وتحول بين السلطان مراد الثاني وجيشه في آسيا وبين العبور إلى أوروبا ، وكادت الخطة تنجح لولا عناية الله ثم أن السلطان مراد استطاع أن يرشو الجنويين بمال كبير حيث نقلوا الجيش العثماني إلى أوروبا على سفنهم مقابل ما بذله لهم محمد من رشوة .

(٧) وصاة جد محمد الثاني «عثمان» ـ مؤسس الدولة العثمانية ـ بفتح مدينة القسطنطينية كما أخبره أبوه مراد بهذه الوصية إدراكاً منه بأهمية هذه المدينة .

(٨) وكان طريق الاتصال بين الجزء الآسيوي من الدولة العثمانية والجزء الأوروبي منها تسيطر عليه مدينة

القسطنطينية ، وفي وسعها قطعه أو عرقلته ولم يكن للعثمانيين أسطول يؤمن لهم السيادة في بحر مرمرة ، وطالما هددت مدينة القسطنطينية الجزء الأوروبي من الدولة العثمانية بالخطر الداهم ، فكانت هذه المدينة شوكة في جسم الدولة العثمانية فأينما ذهب السلطان وقفت مدينة القسطنطينية من ورائه تشهر الخنجر لطعنه في ظهره .

(٩) انتهز قسطنطين زحف السلطان الفاتح إلى آسيا الصغرى لقمع إبراهيم أمير القرمان فبعث إليه وفداً يطلب منه أن يدفع من فوره مصاريف الأمير «أورخان» ويدفعها مضاعفة وإلا فإنه سيطلق سراح هذا الأمير ويثيره عليه ويمده بجيش من عنده ويجلسه على عرش السلطنة ـ ولا يستبعد أن يكون

ثمة تواطؤ وتآمر بين هذين الرجلين - إبراهيم في آسيا وقسطنطين في أوروبا - على الإيقاع بمحمد الثاني والقضاء على دولته وغرهما حداثة سنه .

(١٠) البشارة النبوية الواردة في الأثر القائل : لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش .

(١١) أراد محمد الثاني أن يحقق الحلم الذي كان يحلم به المسلمون من قبله ألا وهو فتح مدينة القسطنطينية ، وقد تم له ذلك وجعل الحلم حقيقة .

(١٢) موقع مدينة القسطنطينية أطمع محمد الثاني باحتلالها لأنها في نظره مفتاح أوروبا وبابها الشرقي .

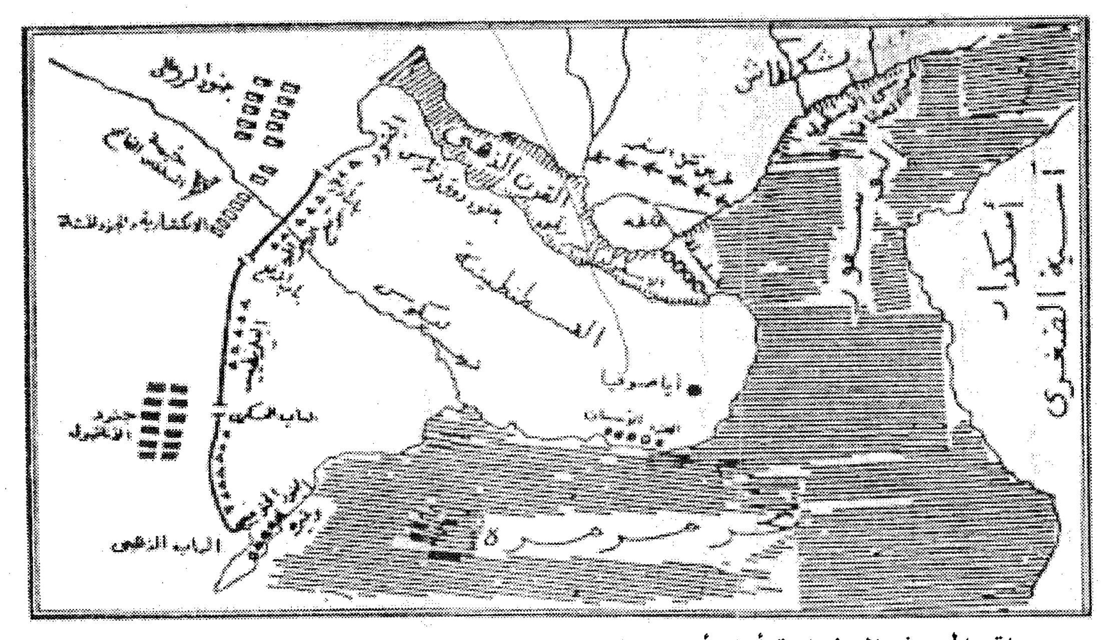
(١٣) الحالة السيئة التي كانت عليها مدينة

القسطنطينية مما أدى إلى تكاثر الأعداء حولها واستنزاف مواردها وقوتها الداخلية .

(١٤) النزاع الداخلي والإفلاس الذي أصاب مدينة القسطنطينية نتيجة الترف والتعلق بالمظاهر المغرية .

الفصل الرابع

الحصار والفتح



مواقع الجيوش العثمانية أمام أسوار القسطنطينية ومواقع جنود الامبراطورية الرومانية

عن كتاب (السلطان محمد الفاتح) للدكتور علي ، سيد رضوان

لفتح مدينة القسطنطينية نجد أن محمد الثاني قد قام بعدة خطوات هامة تضمن له النجاح ـ بعد توفيق الله تعالى ـ لتحقيق هدفه من هذه الخطوات ما يلي :

(١) عقد الاتفاقات السلمية مع البندقية والمجر والأفلاق والبوسنة وغيرها من البلدان والإمارات وعقد هدنة مدتها ثلاث سنوات مع «هونياد» المجري .

(٢) شرع في بناء قلعة منيعة (١) على الشاطئ الأوربي من البسفور بإزاء القلعة التي بناها السلطان بايزيد (٢) الأول على الشاطئ الآسيوي عند أضيق نقطة من القناة ليحكم بذلك إغلاق هذا الممر ويحول دون وصول أي مساعدة قد تأتي من البحر

---

(١) اسمها روم إيلي حصار ، ص : ٤٣٠ ، تاريخ الشعوب الإسلامية بروكلمان ط ٤ ١٩٦٥م ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي .

(٢) اسمها الأصلي «كوزلجة حصار» المرجع السابق ، ص : ٢٣ .

الأسود .

(٣) أعد جيشاً مدرباً تدريباً عسكرياً ومنظماً تنظيماً كافياً مطيعاً لأوامره ملبياً لندائه ، يفوق جيش البيزنطيين من حيث العدد والعدة .

(٤) جلب المهندسين والخبراء من بلاده والبلاد المجاورة كان من أشهرهم صانع المدافع لمحمد الثاني و اسمه «أوربان .. أحد مهندسي سلاح المدفعية المجريين ، وصل إلى بلاط محمد الثاني بعد أن فشل في مدينة القسطنطينية وغيرها من بلدان أوروبا في الحصول على وظيفة وتقدير ، فرحب به محمد الثاني »(١) وغيره من صناع الجسور والأسلحة الأخرى وأغدق عليهم الأموال الطائلة لقاء تحقيق كل ما وعدوه

---

(١) علي ، سيد رضوان ، المرجع السابق ، ص : ٢٣ .

بتنفيذه .

(٥) وفّر المؤن والأرزاق اللازمة لجيشه ليضمن له مواصلة الجهاد وتحقيق الهدف المنشود وسد كل فراغ يحدث في صفوف جنده .

(٦) بذل الأموال الطائلة لقاء استمالة الأعداء إلى جانبه ليأمن بذلك شرهم وكيدهم .

الحصار والفتح :

بعد أن وُجدت الأسباب التي أشرنا إليها سابقاً لخوض حرب مع البيزنطيين قام محمد الثاني بإنشاء حصنٍ منيعٍ على الشاطئ الأوروبي تجاه مدينة القسطنطينية . وقد احتج الامبراطور البيزنطي قسطنطين ضد هذا الإجراء الذي قام به محمد الثاني

حيث بعث الإمبراطور إلى محمد الثاني رسلاً يطلبون منه العدول عن مشروعه لكن محمد الثاني أجابهم قائلاً: « ليس فيما أقوم به ما يهدد مدينتكم إنما هي أسباب الحيطة أتخذها لدولتي وليس في ذلك أي نقض للعهد . إن لكم القسطنطينية بأسوارها ، وليس لكم وراء ذلك من شيء . وهل نسيتم ما انتاب والدي من الفزع عندما تحالف امبراطوركم مع المجر وأراد منعه من عبور البحر إلى أوروبا ، وسدت سفنه المضيق واضطر السلطان مراد أن يستعين بالجنويين ؟ لقد كنت حينذاك في أدرنة وكنت لا أزال فتى يافعاً وقد ارتعد المسلمون من الخوف والفزع وكنتم تسخرون منهم وتشتمون ، لقد أقسم والدي في موقعة وارنه ليقيمن قلعة على الشاطئ الأوروبي ، وهأنذا أبر بيمينه وليس لكم الحق أو القوة

في منع ما أقوم به الآن في أرضي فإن كلا الشاطئين لي . أما الشاطئ الآسيوي فلأنه يسكنه المسلمون ، أما الشاطئ الأوروبي فلأن الروم قد هجروه وأنتم لا تقدرون على الدفاع عنه . اذهبوا إلى سيدكم وأخبروه أن السلطان العثماني الآن يختلف عن أجداده فإن لي عزماً فوق عزمهم وقوة فوق قوتهم ، انصرفوا الآن إلى دياركم بسلام ووالله ما جاءني أحد منكم بعد ذلك بمثل هذه الرسالة إلا قتلته » (١) .

المهم أن جيوش العثمانيين صدرت إليها الأوامر الأخيرة بالتوجه إلى حصار مدينة القسطنطينية وتحركت هذه الجيوش وفي مقدمتها المدافع الهائلة التي قام بصنعها أوربان ، وقد حملت فوق عربات ضخمة يجرها

---

(١) الرشيدي ، سالم ، المرجع السابق ، ص : ٨١ .

عدد ليس بقليل من الثيران . واصلت الحملة العسكرية سيرها إلى مدينة القسطنطينية واستولت في طريقها على عدة مواقع وبلدان مثل : مسميريا وإنكيالوس وبذيه وسواها . كما استولت على قلعة «سنت إتين» الواقعة على بعد ثلاث مراحل من المدينة .

وصلت هذه الجيوش الجرارة إلي مدينة القسطنطينية الهدف الرئيسي ، وبدأ محمد الثاني بذلك الحصار الشهير لعاصمة الدولة البيزنطية «في اليوم السادس من إبريل سنة ١٤٥٣م» (١) وأقيم للسلطان محمد الثاني مخيم خلف التل المواجه لأسوار المدينة الممتدة من باب « أدرنه» إلى باب القديس «رومانوس» ورابطت قوات العثمانيين على طول امتداد

(١) علي ، سيد رضوان . المرجع السابق ، ص : ٢٤ .

الأسوار الغربية للمدينة ونصبت المدافع الجبارة أمام أسوار المدينة في نقط ومواقع متقاربة وعسكر من خلفها الجند الذين يحملون السِهَام .

ويبالغ كثير من المورخين في عدد الجيش العثماني على روايات مختلفة أصحها والذي يميل إليه العقل أنها حوالي « ٨٠ » ألفاً (١) من الجند المقاتلة فيهم عدد كبير من الفرسان ، وعدد كبير من الإنكشارية « وهم غلمان صغار السن من أبناء النصارى الذين قُتل آباؤهم في الحروب ، ضمهم السلطان أورخان العثماني إلى جيشه بعد أن فرض على سكان المدن المسيحية التي غزاها ألف غلام من حسان الغلمان وقام بتربيتهم تربية إسلامية حربية شبيهة بتربية الأسبرطيين لأبنائهم حتى إذا ما كبر

(١) علي ، سيد رضوان . المرجع السابق ، ص : ٢٤ .

هؤلاء الغلمان وصاروا أقوياء متمرنين على الحرب لا يعرفون لهم أباً غير السلطان ولا أماً إلا دولة آل عثمان ، ولا ديناً غير الإسلام » (١) ، « أما المدافعون فلا يتعدى عددهم أربعين ألفاً » (٢) ووصل الأسطول العثماني إلى مياه البسفور حيث عسكر في مياهه تحت قيادة أمير البحر « بلطة أوغلي» وقد اختلف في عدد سفن هذا الأسطول على روايات أصحها ثمانون سفينة (٣)، وكانت هذه أول مرة يظهر فيها الأسطول العثماني في ميدان الحرب .

المهم أن الجيوش العثمانية وزعت توزيعاً دقيقاً

---

(١) زياده ، محمود محمد ، تاريخ الدولة العثمانية وحاضر العالم الإسلامي ، ط ٢ ، ١٣٩٣هـ ، مؤسسة الطالب ـ الرياض ، المملكة العربية السعودية .

(٢) علي ، سيد رضوان ، المرجع السابق ، ص : ٢٦ .

(٣) محمود عبد الوهاب محمود ، التاريخ الحديث ، ص : ٩ .

للسيطرة على أسوار المدينة ومنافذها وطرق إمداداتها من الخارج ورابط القائد « رغانوس باشا » في بعض القوات على مرتفعات ضاحية «غلطة» لكي يراقب حركات الجنويين ليحول بينهم وبين إمداد المدينة المحاصرة .

طوقت مدينة القسطنطينية من جميع الجهات براً وبحراً بقوات كثيفة لم يسبق أن طوقت بمثلها في جميع الحملات التي وجهت لحصارها . وكان هذا الجيش المحاصر لها على أحسن ما يكون من حيث العُدة والعَدد والتدريب والنظام والروح المعنوية ، وذلك بفضل الله أولاً ثم الجهود التي بذلها محمد الثاني. أما قوات البيزنطيين فقد كانت في وضع مغاير لقوات الجيش العثماني تماماً فقد كانت قليلة من حيث العدد والعُدة

ينقصها النظام وروحها المعنوية محطمة ، وقد وزعت هذه القوة على أسوار المدينة بعد أن زودت بما يتوفر لها من سلاح . وانضم إليها عدد من المرتزقة الجنويين والبنادقة بقيادة « يوحنا يوستنياني الجنوي» وكان هؤلاء قد جاءوا نجدة من بلادهم استجابة لنداء قسطنطين . ولكنهم قليلو العدد من حيث رجالهم وسفنهم لا يمكن أن يعادلوا صريخ قسطنطين الذي اشترط عليه بابا روما نظير تقديم المساعدة في الدفاع عن المدينة أن تخضع له الكنيسة الشرقية البيزنطية مما أدى إلى غضب رعايا الإمبراطور المتمسكين بمذهبهم الديني ، وقد جاءت هذه النجدة القليلة «بعد أن أحس الإمبراطور البيزنطي حينذاك بخطر الاستعدادات التي يبذلها العثمانيون للاستيلاء على مدينته فحاول أن يستجدي معونة الغرب

ولكن دون جدوى ، وذلك أن فرنسا وإنجلترا أنهكهما عندئذٍ الصراع الطويل الذي انتهى بضياع ممتلكات انجلترا في القارة ، في حين كانت ألمانيا دولة ممزقة لا تستطيع الوقوف على قدميها إلا في صعوبة ، مما ترك الإمبراطور البيزنطي وحيداً دون معونة تذكر سوى مساعدة يسيرة من البنادقة والجنويين ، وغيرهما من ذوي المصالح التجارية في الشرق ، ولكن حتى هذه المعونة التافهة لم تحل دون تحقيق المصير المحتوم فسقطت مدينة القسطنطينية في أيدي العثمانيين سنة ١٤٥٣م»[١] . وكان هؤلاء المدافعون جميعاً يخيم عليهم اليأس إذا ما قارنوا وضعهم بجيش محمد الثاني لا سيما وأن أغنياء المدينة رفضوا أن يمدوا المدافعين بالمال اللازم

---

(١) عاشور ، سعيد عبد الفتاح ، المرجع السابق ، ص : ٦٥٦ .

واحتفظوا بأموالهم حتى أخذها العثمانيون غنيمة . لهذا نجد هذه العاصمة في حالة يرثى لها من الانحلال والتفكك وأضحت أنقاض مملكة قوضت أطرافها وغدت لا اعتماد لها في الدفاع إلا على نفسها ، وفق إمكاناتها الذاتية .

ورغم هذه الحالة التي وصفناها نجد أن المدافعين قد اعتصموا بأسوارهم واكتفوا بإلقاء القذائف على القوات المحاصرة لهم من وقت لآخر ضناً بمواردهم القليلة من الذخيرة ، وكان أحسن الأسلحة في أيديهم هي النار الإغريقية التي اتخذوها سلاحاً في رد المحاصرين منذ زمن طويل . ورغم قلة ما لديهم من سلاح فإنا نجد قذائفهم ونيرانهم تفتك بالجيوش العثمانية من حين لآخر ، واستطاعوا أن يسكتوا مدافع العثمانيين بعض الوقت

رغم ما لدى العثمانيين من مدافع وأسلحة أخرى قوية .

ومضت الأيام الأولى من الحصار في محاولات ومعارك جزئية يتخللها قصف المدافع التركية لأسوار المدينة بشدة ، وبعد ذلك وفي إحدى الليالي المقمرة حاول العثمانيون مهاجمة أسوار المدينة بعنف ووقعت تحت ضوء القمر معركة شديدة قتل فيها عدد كبير من الأتراك و رغم ما قتل منهم استطاعوا أن يصلوا إلى الخندق العميق الذي يحيط بالأسوار وأن يملأوه بجذوع الأشجار وجثث الموتى واستطاعوا بعد مشقة أن يحدثوا ثغرة في قلعة « سنت رومانوس» ولكن الظلام حال دون تقدمهم . فلما أصبح الصباح وجد العثمانيون بأن البيزنطيين قد سدوا هذه الثغرة وأصلحوها ونظفوا الخندق وحطموا السلالم التي نصبها العثمانيون ، ورغم

هذا الحصار الشديد البري والبحري وصلت إلي المدينة المحاصرة بعض الإمدادات من الجزائر والمورة وصقلية ، ووصل أيضاً أسطول جنوي استطاع أن يخترق سفن العثمانيين ويصل المدينة المحاصرة حاملاً بعض المؤن وإن كانت قليلة إلا أن المدافعين انتعشوا بعض الشيء بعد وصول هذه الإمدادات . وثار السلطان محمد الثاني غضباً لفشل سفنه ، ونكل بأمير البحر «بلطة أوغلي» ثم عقد محمد الثاني مجلساً للشورى فيما يفعل حيال وصول هذه الإمدادات فنصح بعض خاصة السلطان بعقد صلح مع الامبراطور خشية وصول إمدادات جديدة إليه وخشية أن يفشل العثمانيون في ردها وعرف السلطان رأي أعضاء هذا المجلس جميعاً ، وفي النهاية أظهر للجميع بأنه سوف يتابع الحصار حتى يتحقق له هدفه أو

يفنى هو وجنده في سبيل ذلك مهما واجه من الصعاب وأدرك السلطان أنه لابد من تحطيم السلسلة الحديدية التي تغلق الميناء في وجه سفنه أو أن تصل سفنه إلى الميناء بأية وسيلة ، وقرر أخيراً أن ينقل جزءاً كبيراً من سفنه إلى داخل الميناء بطريق البر من نهاية غلطه التي كان فيها عدد كبير من البنادقة والجنويين ، وكان موقفهم تجاه الحصار غامضاً حيث كانوا يعاونون البيزنطيين معاونة قيمة في أثناء الليل ، وفي النهار يبيعون الزيت للأتراك لتشحيم مدافعهم الضخمة ، وأحياناً ينقلون إليهم بعض الأنباء والمعلومات الهامة .
إلى داخل القرن الذهبي، وكانت المسافة التي يجب اجتيازها لنقل السفن لا تتعدى مرحلتين ، ولكنها وعرة تتخللها المرتفعات والأدغال إلا أن السلطان لديه عدد

كبير من المهندسين البارعين من ترك وغيرهم ، فوضعت خطة في أسرع وقت حيث بدئ العمل فيها في جُنح الظلام ، وعلى غفلة من جيوش البيزنطيين المدافعين عن مدينة القسطنطينية ، وحشدت جماعات كبيرة من العمال الذين يقومون بهذه المهمة الشاقة ، وقام هؤلاء بتمهيد الطريق الذي تنتقل عبره السفن في نتوء (غلطة) وغُطي بألواح من الخشب طليت بالدهن والشحم ، وفي خلال ليلة واحدة نقل العثمانيون عدداً كبيراً من سفنهم خلال هذا الطريق بعد أن طويت أشرعتها ، ونقلت بواسطة البغال والرجال الذين قاموا بجرها من شاطئ البسفور إلى القرن الذهبي . وما كاد الصبح يسفر حتى اتضح لأهل مدينة القسطنطينية حيلة الأتراك وإنفاذهم لسفنهم وخطورة الموقف وأن سفن

الأتراك أخذت تسيطر على القرن الذهبي ووصلت تحت أسوار المدينة الأمر الذي يلزم البيزنطيين أن يغيروا من مواقعهم ويتخذوا لهم خطة دفاعية جديدة تمشياً مع تطورات الحصار . والآن يتبادر لذهننا هذا السؤال .. كيف استطاع السلطان محمد الثاني أن ينقذ سفنه في هذه السرعة الهائلة ؟

إن الجواب سهل وميسور إذا ما تتبعنا سير الحصار بدقة حيث نجد الأمور التالية هي التي سهلت للسلطان العثماني محمد الثاني تنفيذ هذه الفكرة .

(١) إن المنطقة التي أجريت خلالها هذه العملية كانت في قبضة جيوش محمد الثاني .

(٢) إن محمد الثاني إضافة على ما تقدم حشد جيوشاً أخرى زيادة في أخذ الحذر والحيطة .

(٣) إن الجنويين الذين كانوا يقيمون في (غلطة) قاموا بمعاونة محمد الثاني لتنفيذ هذه المهمة ، بل قيل أنهم هم الذين أرشدوه إلى اتخاذ هذه الفكرة الجريئة .

من هنا نجد أنه فتحت أول ثغرة في خط دفاع البيزنطيين ، وتم للأتراك إحكام حصارهم للمدينة في البر والبحر ، وأمر السلطان العثماني محمد الثاني بإنشاء جسر ضخم داخل الميناء صُفَّتْ عليه المدافع ، وشُحِنَتْ السفن المنقولة بالمقاتلين والسلالم وتقدمت السفن بعد تجهيزها حتى عسكرت في أقرب مكان من الأسوار .

وأخذ المُحاصرون يفكرون في تحطيم هذا الجسر وإحراق السفن المحاصرة لهم ولكن الأتراك أدركوا

محاولة البيزنطيين عن طريق الجنويين في (غلطه) فأخذوا الحيطة والحذر استعداداً للحيلولة دون تنفيذ هذه المحاولة الخطرة ، ورغم ذلك حاولت ثلاث سفن بندقية أن تبدأ هذه المحاولة ولكن الأتراك بادروا بإطلاق النار عليها فغرقت في الحال وغرق معها عدد غير قليل من البحارة والضباط مما اضطر ما تبقى من السفن إلى العودة إلى أماكنها حينما أدركت فشل المشروع ، وحاولت بعد ذلك جماعة من البحارة البنادقة إحراق السفن التركية حيث تسللوا إليها في الليل في قوارب أعدوها لهذه المهمة واستطاعوا إضرام النار في بعض السفن التركية ، ولكن الأتراك قبضوا على معظم هؤلاء المغامرين ، وقتلوهم أمام أعين المدافعين . ولما رأى البيزنطيون هذا الإجراء من جانب الأتراك بادروا بالانتقام فقتلوا مائتي

أسير مسلم وألقوا رؤوسهم من فوق الأسوار . بعد ذلك وضع الأتراك بعض المدافع على مرتفع «سنت تيودور» وأخذوا يطلقون قذائفها على السفن الداخلة إلى الميناء مهما كانت جنسيتها ثم وجهوا قذائفها إلى المدينة ولكنها لم تحدث أثراً يذكر .

ثم قام «جون يوستنياني» قائد الجيش البيزنطي في محاولة جديدة لاحراق الأسطول التركي في مياه القرن حيث سار في سفينة كبيرة أعدها لمهمته تسلل بها في منتصف الليل ، ولكن مواطني (غلطه) أخبروا الترك سراً عن محاولة «جون يوستنياني» فأخذ الترك استعدادهم لهذه المحاولة وما أن رأوا سفينة يوستنياني حتى أخذوا في إطلاق النار عليها مما أدى إلى غرقها وغرق فيها زهاء مائة وخمسين من البحارة هم نخبة

معاوني يوستنياني وقد نجا يوستنياني من هذا الحادث بصعوبة شاقة .

واستمر الحصار زمناً طويلاً والأتراك مستمرون في ضربهم لأسوار المدينة بمدافعهم ، وأخذت مؤن المدينة في التضاؤل المستمر ، ولما اشتد الحصار وضاقت حال المدينة أمر قسطنطين بنزع آنية الذهب والفضة من الكنائس وأن تصهر وتسك نقوداً لمواجهة الحالة الشديدة الصعوبة الناتجة عن استمرار الحصار . بعد ذلك وفي منتصف إحدى الليالي قام الأتراك بمهاجمة المدينة بثلاثين ألف مقاتل ، ولكن المدافعين ردوهم وأوقعوا بهم خسائر فادحة ، ثم كرر الترك المحاولة مرة أخرى ولكنهم رُدوا على أعقابهم أيضاً . ثم أخذ الأتراك يحفرون تحت الأسوار حتى استطاعوا أن يحدثوا سراديب عديدة

تحتها ، إلا أنّ البيزنطيين كانوا في كل مرة يكتشفون محاولة الأتراك ويقومون بإحباطها ، وذلك بحفر السراديب المضادة واضرام النار فيها .

مضى على حصار المدينة قرابة تسعة وأربعين يوماً اشتد فيها الضيق على المدينة المحاصرة ونهكت قوى المدافعين وقلت مواردهم مما اضطر الإمبراطور أن يجرد الكنائس من جميع ذخائرها ليدفع للجند أجورهم ليواصلوا الدفاع عن المدينة المحاصرة . وكان الخلاف على أشده بين البيزنطيين وبين البنادقة والجنويين ، وأخذ كل منهم يرمي الآخر بالجبن والتخاذل والخيانة ، وزيادة على ما تقدم بدأت آثار التخريب واضحة في عاصمة البيزنطيين إذ هدمت أسوارها وسقط من أبراجها المنيعة عدد غير قليل وبدأ واضحاً للعيان ازاء إصرار العدو

المحاصر وتخاذل المدافعين أنه لم يبق ثمة ريب في مصير المدينة المروع .

رأى السلطان محمد الثاني أن يحمل الإمبراطور قسطنطين على التسليم فأرسل إليه صهره «إسماعيل بك» فاستقبله قسطنطين فعرض رسول السلطان على الإمبراطور ما أوصاه به السلطان محمد الثاني وهو :

١ ـ أن الدفاع عن مدينة القسطنطينية عبث لا يجدي شيئاً أمام القوات التركية التي تحاصر المدينة من جميع الجهات .

٢ ـ وأن عليه الخضوع والتسليم بدون قيد أو شرط .

٣ ـ وأن عليه أن يحقن الدماء من كلا الجانبين .

٤ ـ وأن يقي شعبه الرق والذل .

٥ ـ وأن يقي مدينة القسطنطينية من الدمار .

وعرض رسول السلطان كما أوصاه بذلك سيده - على الإمبراطور مقابل التسليم :

١ - أن يجعله ملكاً على جزيرة المورة .

٢ - وأن تمنح الحرية الكاملة لمن شاء الرحيل من أهل المدينة المحاصرة للوجهة التي يرغبها .

٣ - وأن يكفل الأمن والسلامة لمن أراد الإقامة فيها .

بعد ذلك جمع الإمبراطور مستشاريه وعرض عليهم الأمر فأصروا جميعاً بأن يواصلوا الدفاع عن عاصمة بلادهم مهما كانت التضحيات ، وأبلغ الإمبراطور رسول السلطان ما اتفق عليه رجال دولته وقال أنه يجدر بالسلطان أن يفكر في عقد السلم وأن يقبل الجزية ، وأنه لن يسلم المدينة وأنه سوف يواصل الدفاع عنها حتى آخر رجل ، وأنه سوف يموت مدافعاً

عن ملكه وعقيدته تحت أسوار عاصمة ملكه .

عاد رسول السلطان التركي وأخبره بما جرى مع الإمبراطور . وحالاً جمع محمد الثاني رؤساء جنده وأعلن إليهم بأن هجوماً عاماً سيوجه إلى المدينة المحاصرة في يوم حدده لهم من جهة البر والبحر ووعدهم بأن الغنائم كلها ستكون لهم وأنه سوف يعطيهم جميع الأسرى ، ولا يأخذ لنفسه سوى المدينة أرضها ومبانيها ، وأنه يمنحهم ثلاثة أيام لجمع الغنائم والأسلاب . وتعهد رؤساء الإنكشارية بتحقيق النصر ووعد السلطان الرجال الشجعان الذين يصعدون إلى الأسوار في مقدمة الجيش بأعظم الصلات وأنه زيادة على ذلك سوف يعينهم رؤساء سناجق «مفردها سنجق بمعنى اللواء وهي كلمة فارسية

الأصل» (١) . ولكنه في مقابل ذلك أنذر الجبناء بشر الجزاء . وفي أثناء هذا الاجتماع ألقى محمد الثاني هذه الخطبة التي قال فيها : « إذا تم لنا فتح القسطنطينية تحقق فينا حديث من أحاديث رسول الله ومعجزة من معجزاته ، وسيكون من حظنا ما أشاد به هذا الحديث من التمجيد والتقدير فأبلغوا أبناءنا العساكر فرداً فرداً ، أن الظفر العظيم الذي سنحرزه سيزيد الإسلام قدراً وشرفاً ، ويجب على كل جندي أن يجعل تعاليم شريعتنا الغراء نُصب عينيه فلا يصدر عن أحدٍ منهم ما يجافي هذه التعاليم وليتجنبوا الكنائس والمعابد ولا يمسوها بأذى ويدعوا القسس والضعفاء والعجزة

---

(١) المعلوف ، المعلوف ، المنجد في اللغة والأعلام ، ص : ٣٥٤ .

الذين لا يقاتلون»[1].

بعد ذلك طاف علماء المسلمين في معسكرات الجيش التركي حاثين الجند على الجهاد في سبيل الله . وفي المساء أضيئت الخيام والسفن وأقيمت الابتهالات وارتفع ضجيج الجند بالتكبير والتهليل وارتفعت الحماسة وقويت العزيمة بين أفراد الجيش ، واستبشروا بالنصر القريب .

أما البيزنطيون فقد سمعوا ضجيج الجيش التركي فيما وراء أسوار المدينة وأيقنوا بالنهاية المحتومة وسيطر عليهم اليأس والوجوم ودب في نفوسهم الرعب ، واحتشد سكان المدينة في شوارعها المظلمة رافعين صورة العذراء ويرمون بأنفسهم أمام تماثيلها

---

(١) الرشيدي ، سالم ، المرجع السابق ، ص : ١٢٦ .

يطلبون النجاة والمغفرة . وكان منهم من يرى التسليم ويلقي باللائمة على الامبراطور على إصراره وعناده .

ولكن الإمبراطور قسطنطين كان رجلاً شجاعاً يؤثر الموت في سبيل وطنه وعقيدته على الحياة الذليلة ، وكان البطريق وكبار رجاله قد نصحوه بالفرار أكثر من مرة ولكنه يرفض رأيهم هذا ويوضح لهم أنه لابد وأن يموت دفاعاً عن بلاده وعرشه ، وكل ما فعله أن أرسل نساء الأسرة القيصرية في سفينة بندقية تحوطاً وتوقعاً للنكبة . ولما أيقن الامبراطور بالنهاية أخذ يتفقد نقاط الدفاع ويحثها على الثبات والصبر ، ثم جمع كبار دولته من سياسيين ودينيين وعرض عليهم الأمر الواقع وناشدهم المعونة والتضحية وأن يقتدوا به في الدفاع عن دينهم وبلادهم وألقى في هذا المجتمع الخطبة التالية «أيها

المحاربون أعدوا أنفسكم للقتال والتضحية بأنفسكم وأرواحكم في سبيل هذه البلدة المقدسة ، وفي سبيل النصرانية ثم أمسك بمقبض سيفه الذهبي ، ومضى في خطبته يقول : إن الساعة الخطرة الفاصلة التي ارتقبناها منذ أيام قد أزفت (١) . إن الرجل ليقاتل ذوداً عن دينه أو وطنه أو ملكه أو أهله وولده فكيف وقد جاءت هذه الأسباب كلها مجتمعة ؟ والقسطنطينية هي معقل النصرانية وملكة المدن ، وقد كانت زمناً ما عاصمة الدنيا . لقد مضت ثلاثة وخمسون يوماً والعدو يحاصر هذه المدينة بكل عتاده وقواه ، وقد رددنا عن أسوارنا بفضل الله وفضل شجاعتكم وهو يتأهب الآن ليضرب ضربته الأخيرة فاثبتوا له كما ثبتم من قبل وادفعوه اليوم

---

(١) دنت وقربت .

عن أسواركم كما دفعتموه بالأمس حتى تخور قواه وينتكس على أعقابه . أيها الإخوان إنكم سلالة صناديد أثينا وأبطال روما فكونوا أهلاً لهذا النسب الرفيع ولا تخيفنكم صيحات العدو ونيرانه المتصاعدة ، وشدوا عزيمتكم واصدقوا في القتال ، وإذا كانت للعدو مدافعه وجنوده وفرسانه فإن لنا الله حامينا فلنضع ثقتنا فيه وسيمدنا بقوته ومعونته » (١) .

وفي المساء ذهب الإمبراطور إلى كنيسة «أيا صوفيا» وبرفقه كبار حاشيته ، وهناك أعلن التوبة بين المجتمعين في هذه الكنيسة ثم عاد إلى قصره الذي يخيم عليه اليأس ، ثم استعد الجميع للدفاع عن مدينتهم وتوزعوا في نقاطها الحساسة للوقوف في وجه الجيش

---

(١) الرشيدي ، سالم ، المرجع السابق ، ص : ١٢٨ .

التركي ، وبذل ما يستطيعون لذلك سبيلا .

أما الأتراك فقد كانوا يستعدون للهجوم الأخير على أسوار المدينة حيث جهزت السلالم وتركز الجند في مواقعهم وعبئت المدافع ، وفي فجر يوم الثلاثاء ٢٠ جمادى الأولى من سنة ٨٥٧ هـ الموافق ٢٩ مايو من سنة ١٤٥٣م هاجم الأتراك مدينة القسطنطينية من البر والبحر ، وأخذت مدافعهم تطلق قذائفها على المدينة بمنتهى الشدة من البر ومن السفن في البحر ، ووجه الهجوم الرئيسي إلى الأماكن الحساسة في أسوار المدينة واختلط دوي المدافع بدق الطبول وصراخ الجند وأنين الجرحى ، وفي هذه اللحظة التي شن فيها الأتراك العثمانيون هجومهم على المدينة المحاصرة أخذت قذائف المدافعين وسهامهم تتماطر من فوق الأسوار على رؤوس

المهاجمين، والنار اليونانية تفتك بالسفن التركية فتكاً ذريعاً ، ثم ضاعف الأتراك جهودهم وقذفوا إلى المعمعة بقوات جديدة ، واشتد قصف المدافع التركية من كل ناحية على المدينة المحاصرة . أما المدافعون فقد ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وأشرفت ذخيرتهم على النفاذ أمام الهجوم الفظيع ، وحدث في هذا الهجوم الهائل أن جرح (جون يوستنياني) في ذراعه وفخذه وسالت دماؤه بغزارة مما اضطره إلى الانسحاب من الميدان للبحث عن جراح يقوم بعلاجه ، وقد لاحظ الامبراطور قسطنطين هرب (جون يوستنياني) من الميدان ، واستوقفه وصاح فيه «جرحك بسيط ولكن الخطر يدهمنا ، ووجودك ضروري ، ثم إلى أين أنت ذاهب ؟» وأجاب ابن جنوه وهو يرتعد «سأذهب في الطريق نفسه الذي فتحه الله

للأتراك» (١) ، الأمر الذي أدى إلى انسحاب عدد غير قليل من الضباط والجند مقتفين أثر يوستنياني مما جعل انسحاب هؤلاء خسارة فادحة مني بها المدافعون في الوقت الذي اشتد فيه هجوم الأتراك .

من هنا نجد أن قوة المدافعين بدأت في التضاؤل ، وشعر الأتراك بذلك فضاعفوا جهودهم ، ووثب جماعة من الإنكشارية إلى أعلى السور ، وكان أول من صعد منهم جندي عملاق يسمى «حسن الآلوباتي وتبعه ثلاثون قتل منهم ثمانية عشرة » (١) وأخذت المدفعية التركية تشد من ضربها للأسوار حتى ثلمت في أكثر من موضع ،

---

(١) إدوارد ، جيبون ، اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها . جـ ٢ ، ترجمة محمد سليم سالم . ص : ٣٦٠ ،

(١) كلتي ، برناردين ، فتح القسطنطينية . ترجمة : شكري محمد نديم ص : ١٣٠ .

وأخيراً استطاع الأتراك أن ينفذوا إلى المدينة من باب «سيركو برتا» وذاع الخبر وروع البيزنطيون وأسرع الأمبراطور قسطنطين ومن معه إلى تلك المنطقة التي نفذ منها الأتراك وألقى الإمبراطور نفسه في مقدمة الصفوف، ونشبت بين الفريقين معركة شديدة ، وفي أثناء اشتداد الوطيس سقط الإمبراطور صريعاً على أثر إصابته بضربتي سيف من يد مجهولة ، واختفى بين القتلى ، وكان آخر ما قاله : « ألا من نصراني ينتزع رأسي » وهكذا سقط الإمبراطور مدافعاً عن مدينته ودينه، وكان يناهز التاسعة والأربعين ، وعلى أثر مقتله دبت الفوضى بين صفوف البيزنطيين لسقوط قيادتهم ، وحل الخلل بينهم ، ونفذ الأتراك إلى المدينة من باب «كالجاريا» القريب من القصر الإمبراطوري ، ومن أبواب

أخرى وانهالت جموعهم في زحام شديد إلى جوف المدينة ، وفر المدافعون من أمامهم طالبين النجاة لا يلوون على شيء ، وقتل الأتراك منهم أعداداً كثيرة وأسروا أعداداً أخرى ، ونجا عدد آخر تمكن من الهروب إلى الميناء ومواصلة الفرار حيث التقطتهم السفن الجنوية والبندقية إلى خارج الميناء وأوصلتهم مأمنهم ومعهم ما حملوه من متاع . ولجأ عدد آخر إلى كنيسة (سنت صوفيا) من رجال ونساء ورهبان وسواهم ، ونقل الأسرى إلى المعسكرات التركية وفيهم عدد غير قليل من الشخصيات البارزة كالمؤرخ «فرانزا» . ولما تأكد السلطان محمد الثاني بأن جنده قد تمكنوا من السيطرة على المدينة ركب جواده وحثا التراب على رأسه خضوعاً وشكراً لله ، ثم سار إلى (باب القديس رومانوس) يحيط

به كبار رجال دولته .

ودخل محمد الثاني عاصمة البيزنطيين وجال في أنحائها وهو يتأمل في دهشة وإعجاب شوارعها وطرقاتها الفسيحة وقصورها وكنائسها الفخمة ، وواصل جولته حتى وصل كنيسة «آيا صوفيا» حيث ترجل عن جواده ودخل تلك الكنيسة التي بهرته ، وفي الحال أمر أن يتلى القرآن من المنبر وبأن تحول الكنيسة إلى مسجد ، وأن يرفع الآذان من فوق قبلتها ، ثم صلى السلطان فوقها هو ومن معه . وطهرت الكنيسة ونزع ما فيها من تماثيل وصلبان وصور ، وغسلت حتى طهُرت تماماً .

وهكذا افتتحت شعائر الإسلام في عاصمة القياصرة بصفة رسمية عقب افتتاحها بساعات قليلة

وارتفع علم الإسلام فوق أسوارها وقصورها معلناً نصر الإسلام على أعدائه ، وأطلق على السلطان محمد الثاني لقب (محمد الفاتح) .

وبعد ذلك وجدت جثة الإمبراطور البيزنطي بين جموع القتلى حيث حملت رأسه إلى السلطان ، وكذلك حُمِلت رأس «أورخان» الذي كان معتقلاً في بلاد الإمبراطور ، وكان أورخان لما تأكد عنده دخول الأتراك المدينة ألقى بنفسه من قمة أحد الأبراج مفضلاً الهلاك على الأسر . وأمر السلطان محمد الفاتح برأس الإمبراطور أن توضع على رأس أحد الأعمدة الأثرية في إحدى الساحات ثم طيف بها بعد ذلك في أنحاء المدينة وسمح للبيزنطيين بأن يدفنوا جثته .

وأمر السلطان محمد الفاتح باعتقال كبير الوزراء

البيزنطيين المدعو «نوثاراس» فلما أحضر للسلطان أنّبه على عدم تسليم المدينة فأوضح الوزير بأن ذلك مستحيلاً . واعتذر للسلطان عما حدث وعرض عليه كل ما يملكه من أموال وخزائن نظير العفو عنه فعفا عنه السلطان وأولاه عطفه.

وفي اليوم التالي لسقوط مدينة القسطنطينية طاف السلطان محمد الفاتح بالمدينة ممتطياً صهوة جواده ودخل قصر القياصرة المسمى «قصر بلاشرني» وبهرته روعته وضخامته . وقضى السلطان محمد الفاتح بعد ذلك في المدينة المفتوحة قرابة عشرين يوماً، وكان أول ما عني به بعد هذا الفتح العظيم ما يلي :

١ ـ تغيير اسم هذه المدينة بمسمى جديد هو (إسلام بول) .

٢ ـ منح الأماكن لسكان المدينة .

٣ ـ أنه يحق لكل من غادر المدينة من سكانها الأصليين أن يعود إلى منزله فيها بلا خوف ولا وجل .

٤ ـ أن يعود الناس إلى أعمالهم وشؤونهم التي كانوا يزاولونها بأمن وطمأنينة .

٥ ـ عين للنصارى بطريقاً يرعى شؤونهم الدينية والقانونية وفق تعاليمهم النصرانية .

٦ ـ ترك كثيراً من الكنائس التي لم تمسها يد الخراب على ما هي عليه لتكون محل عبادة للنصارى كما جرت عادتهم .

٧ ـ أمر بإصلاح الأسوار التي تعرضت للدمار .

ثم عاد محمد الفاتح إلى (أدرنه) بعد ذلك

وبرفقه عدد كبير من الأسرى مكللاً بالنصر . وهكذا حقق محمد الفاتح ما لم يستطع تحقيقه من قبله من رجال الدول الإسلامية المتعاقبة ، واستحق لقب «الفاتح» ، واتخذ من هذه المدينة (إسلام بول) عاصمة لدولته التي أصبحت تسمى بالإمبراطورية العثمانية بين الدول القائمة نتيجة ما وصلت إليه من مجد وعظمة حيث أصبحت تنافس كبريات الإمبراطوريات القائمة آنذاك .

وقد استمر هذا الحصار الذي أعقبه الفتح مدة ثلاثة وخمسين يوماً ، وقد نال الإمبراطور قسطنطين الشرف هو وفئة من أتباعه المخلصين نتيجة صمودهم ووقوفهم في وجه عدوهم حتى ماتوا في سبيل مجد مدينتهم وأمتهم ودينهم .

لكن لنتساءل هذا السؤال .. ما الأسباب التي

أدت إلى سقوط هذه المدينة في قبضة العثمانيين علماً بأنها هي مركز الثقل في الدولة البيزنطية ؟

يمكن أن نعزو ذلك إلى أمور كثيرة منها :

(١) الخلاف الديني النصراني الذي حال دون توحيد الكنيستين الشرقية والغربية . الأمر الذي ترتب عليه عدم اهتمام الأخيرة بمساعدة الأولى كما ينبغي .

(٢) وجود خيانات من أهل جنوة والبندقية الساكنين في (غلطه) كان من شأنها إظهار الأتراك على ما يدور في المدينة المحاصرة من أسرار في غاية الأهمية بالنسبة للأتراك .

(٣) قلة قوة البيزنطيين المحاصرين إذا ما قيست بقوة الأتراك .

(٤) قلة ما لدى النصارى البيزنطيين من مؤن وعتاد .

(٥) وجود أسلحة في أيدي الأتراك العثمانيين تفوق أسلحة البيزنطيين .

(٦) تدهور الحالة النفسية في صفوف البيزنطيين ، وهذا في حد ذاته كاف في زعزعة صفوفهم .

(٧)هدم أسوار المدينة نتيجة مهاجمة قوات الأتراك لها .

(٨) انسحاب قائد الجيش البيزنطي يوستنياني ، وعدد غير قليل من أتباعه من الميدان أضعف القيادة البيزنطية ، وبالتالي أدى إلى سقوطها .

(٩) قتل الإمبراطور ، وهذا كاف في تحطيم القيادة وبالتالي حصول الهزيمة ، والخضوع للأمر الواقع .

إذن انتصر العثمانيون فما هي عوامل انتصارهم ؟

يمكن إيجاز ذلك فيما يلي :

١ ـ الاستعداد الكامل للحصار حيث توفر لهم الرجال والأسلحة والمؤن الأخرى .

٢ ـ الإمدادات المتوالية للجيش العثماني .

٣ ـ قوة عزيمة السلطان وصرامته وأخذه لكل أمر حسابه .

٤ ـ استفاد العثمانيون من سكان (غلطة) الذين طالما أظهروا العثمانيين على عورة المدينة المحاصرة وما يدور في داخل أسوارها .

٥ ـ النظام السائد بين صفوف قوات الأتراك العثمانيين .

٦ ـ انتهاز الفرص المواتية وعدم التفريط فيها من قبل الأتراك .

٧ ـ ارتفاع الروح المعنوية بين صفوف الجيش التركي .

٨ ـ إخلاص الجنود الأتراك لزعيمهم نتيجة وعده لهم بالغنائم والثروات ، ونتيجة تهديده لمن يتوانى عن

أداء واجبه .

٩ ـ سيطرة العثمانيين على القرن الذهبي يعتبر من أهم الأسباب التي أدت إلى تحقيق النصر ، وذلك لأن هذا القرن يتحكم في ممر البسفور ، وبالتالي السيطرة التامة على المدينة .

يجدر بنا وقد انتهينا من استعراض عملية الفتح والعوامل التي ساعدت على تحقيقها أن نتطرق لأقوال بعض المؤرخين الغربيين المحدثين حول الطريقة التي دخل فيها العثمانيون للمدينة ونرد عليها ، ثم نشير بعد ذلك لأقوالهم وتصويرهم موقف الفاتحين تجاه أهل المدينة ثم نرد عليها أيضاً معتمدين على أهم أقوال المؤلفين العرب والمسلمين في هذا المجال .

ففي الأمر الأول « يذهب بعض المؤرخين المحدثين

مثل : همر وبيرز وشلانبرجيه في شأن دخول العثمانيين مدينة القسطنطينية إلى القول بأنه كان في شمال باب أدرنه باب صغير خفي لا يكاد يرى يدعى باب «السرك» وقد أهمل هذا الباب أثناء الحصار وأغفل إغلاقه . فلما قام الأتراك بمهاجمة باب أدرنه لمح بعض الإنكشارية هذا الباب الصغير فاقتحموه واندفع بعدهم جنود آخرون وأخذوا المدافعين على غرة واستولوا بذلك على المدينة»[1] « ولا يخفى على ذي بال أن هؤلاء المؤرخين إنما يقصدون بهذا القول أن يحطوا من شأن المسلمين الأتراك وبطولتهم في فتح هذه المدينة الحصينة التي عجزت عنها حملات المسلمين الأولى والإشادة بقوة النصارى وبطولتهم وأن الحظ هو الذي ساعد الأتراك في

---

(١) الرشيدي ، سالم . المرجع السابق ، ص : ١٣٨ .

فتح هذه المدينة . ويمكن أن نقول أيضاً أنه لو صح هذا الحادث الذي يقوله هؤلاء لسجله المؤرخون الذين كانوا في مدينة القسطنطينية ثم كتبوا بعد ذلك حول حصار هذه المدينة قبل فرانتزتس ، وباربارو ، وليونار ، فقد أشار هؤلاء في كتاباتهم إلى ذكر أشياء تفصيلية ليست بذات خطر فكيف يغفلون عن أمر خطير كهذا كان نقطة التحول الحاسم في مصير هذه المدينة . وقصة دخول الأتراك من الباب الصغير المفتوح لم يذكرها غير «دوكاس» وانفرد بروايتها ، وهذا المؤرخ وإن كان معاصراً كان بعيداً كل البعد عن ميدان المعركة لم يشهد شيئاً من حوادث الهجوم والقتال !» (١) .

---

(١) الرشيدي ، سالم ، بتصرف من كتاب (محمد الفاتح) . ص : ١٣٨.

كما «يصور هؤلاء المؤرخون الجنود العثمانيين عند دخولهم المدينة في صورة البرابرة المتوحشين فيقولون عن هؤلاء الجنود ما أن دخلوا المدينة حتى أمعنوا في القتل والنهب والسلب والتدمير فلم يرحموا شيخاً كبيراً ولا إمرأة ضعيفة ولا طفلاً رضيعاً ، واعتدوا على الراهبات والكنائس وانتهكوا الحرمات والمقدسات علانية في ظاهرة النهار ، وأحرقوا الكتب وحطموا الآثار التاريخية» (١) . ونسبوا إلى محمد الفاتح أموراً تخل بالدين والشرف هو منها براء . «ويجب أن نلاحظ أن هذه المساوئ والمقابح التي نسبت للفاتح وجنده إنما جاءت بها الروايات النصرانية لا سيما البيزنطية ،

---

(١) الرشيدي ، سالم ، بتصرف من كتاب (محمد الفاتح) . ص : ١٥٠ .

وقـد شـهـد كـثـيـر من أصـحـاب هذه الروايات مـثل " فـرانتـزتس ، و بـاربـارو » حـوادث حـصـار المدينة بـأنفـسـهـم وأصـابـهم شيء من مـتـاعـب الحـصـار وأهـوال القتـال وعـواقـب الهـزيمة ونجـا منـهم من نجـا وقـلبـه يغلي كـالمرجـل بـالحـقـد والبـغـضـاء والكراهيـة ، ويصب لعناته على المنتصرين ، وذلك أقل ما يشعر به المهزوم إزاء قـاهره ، وهـؤلاء المؤرخون المذكـورون يسمـون الـفـاتح وجنده بالكلاب » (١) .

(١) الرشيدي ، سالم ، بتصرف من كتاب (محمد الفاتح) . ص : ١٥١

الفصل الخامس

صدى الفتح في العالمين الإسلامي والنصراني ونتائجه



أولاً : صدى الفتح في العالمين الإسلامي والنصراني :

كان لسقوط مدينة القسطنطينية في يد الأتراك العثمانيين الفاتحين دوي هائل ووقع عظيم في العالمين النصراني والإسلامي ، وبالطبع اختلف وقعه وأثره في الغرب عنه في الشرق :-

(١) أما النصارى في الغرب : فقد صعقهم نبأ هذا الحادث وانتابهم الشعور بالفزع والألم والذل والخيبة والندم حين لا ينفع الندم ، واتضح لهم خطر المسلمين وتهديدهم للبلاد الأوروبية النصرانية ، وخشي الأوروبيون أن يكون انتصار العثمانيين واستيلاؤهم على مدينة القسطنطينية ما هو إلا بداية لتوغل الترك في أوروبا ، فأخذ الأوروبيون يتتبعون خطوات محمد الفاتح وتحركاته بقلق واهتمام

شـديدين ، وعظـمت في أعـينهم أهـمـيـة هذه المدينة وخطورتها وأنهم فرطوا فيها وتخاذلوا عن نصرتها ، وأنه يجب عليـهم الدفـاع عن دينهم ووطـنهم وصـد هؤلاء الغزاة الفاتحين الذين تمكنوا من السيطرة على عاصمة النصرانية الشرقية .

(٢) أما أثر هذا الفتح في الشرق الإسلامي : فقد عمّت الفرحة والبهجة والسرور بهذا النصر المؤزر الذي تم على يد محمد الفاتح وجنده المخلصين ، وشعر المسلمون أن الإسلام لا يُعلى عليه ولا يقف في وجهه أي جبار عنيد مهما بلغ من القوة والعظمة ، وأن الدولة والغلبة في نهاية الأمر للإسلام وأهل الإسلام. وتقدم سلاطين الإسلام بالتهنئة لمحمد الفاتح بهذا النصر الكبير ، وأقيمت الزينات والاحتفالات في

بعض عواصم البلاد الإسلامية كالقاهرة عاصمة مصر الإسلامية .

ثانياً : نتائج فتح القسطنطينية :

نتج عن هذا الفتح الكبير نتائج عظيمة على العالمين الإسلامي والنصراني نجملها فيما يلي :

(١) بسقوط عاصمة الدولة النصرانية الشرقية في يد العثمانيين تحقق حلم قديم للخلافة الإسلامية جال بخاطرها وشغلت به حيناً أيام فتوتها وعنفوانها ، وكانت تعلق عليه الآمال ، ألا وهو دفع الغزوات الإسلامية وتعاليم الإسلام إلى قلب أوروبا النصرانية وهذا ما تم تحقيقه بعد فتح هذه المدينة الهامة ..

(٢) كان فتح مدينة القسطنطينية للعثمانيين الأتراك

غنماً إقليمياً وسياسياً يتوج جهودهم المتوالية في القضاء على الدولة البيزنطية ويفسح الطريق لزحفهم المظفر إلى باقي بلاد البلقان وأوروبا .

(٣) سقوط هذه المدينة في يد العثمانيين يعد من الأحداث الهامة الفاصلة في التاريخ ، وكان له أثر واضح في اتجاه التطور البشري ، وذلك ما حدا بمعظم المؤرخين إلى اتخاذ سقوط مدينة القسطنطينية بداية للعصور الحديثة .

(٤) سقطت الدولة الرومانية الشرقية بسقوط مدينة القسطنطينية في أيدي العثمانيين سنة ٨٥٧هـ / ١٤٥٣م .

(٥) نقل العثمانيون عاصمتهم من أدرنه إلى مدينة القسطنطينية وصارت المدينة المفتوحة مرفأً تجارياً

للعثمانيين . الأمر الذي ترتب عليه ازدهار تجارتهم وقوتهم البحرية حتى صاروا أقوى دولة بحرية في البحر المتوسط آنذاك .

(٦) كانت الفتوح العثمانية قد توغلت في البلقان بسرعة مدهشة بل اجتازت الدانوب حيث تمكن العثمانيون من إسقاط معقل آخر هام هو مدينة أثينا التي سقطت في أيديهم عام ١٤٥٦م ، واستولوا على بلاد المورة والصرب ،والجبل الأسود ،وألبانيا ، وغير ذلك من بلاد أوروبا ، بل إن أوروبا النصرانية كلها اهتزت لسقوط مدينة القسطنطينية ، وما تلا سقوطها من الاستيلاء على مناطق أخرى لها مكانتها الجغرافية والسياسية ، هذا في المجال البري. أما في مجال البحر فقد بدأت القوى

البحرية العثمانية تتعمق في أعماق البحر الأبيض المتوسط مهددة سيادة المدن الإيطالية مثل : جنوه والبندقية وغيرهما من المدن ، وواصل العثمانيون فتوحهم في البر والبحر ، وحققوا كثيراً من الانتصارات الباهرة في هذين المجالين بحيث لم تأت أواسط القرن السادس عشر الميلادي حتى استطاعوا أن يبسطوا سلطانهم على مناطق شاسعة في أوروبا الوسطى مثل : المجر ، ورومانيا ، وجنوبي بولونيا ، وأجزاء من النمسا . وحاصر الترك فينا مرتين في عامي ١٥٢٩ م و ١٦٨٣م . وبالرغم من فشلهم في هذين الحصارين المشهورين فإن مجرد وصولهم إلى هذه المنطقة التي تمثل قلب أوروبا النصرانية يعد من العوامل المروعة في سائر أوروبا . وكان ـ أحياناً ـ

عاملاً في جمع كلمة الحكام النصرانيين آنذاك ، واتحادهم لمقاومة العثمانيين عدوهم المشترك .

(٧) عندما استولى العثمانيون على مدينة القسطنطينية واتخذوها عاصمة لملكهم أخذ العلماء والفلاسفة النصرانيون يهاجرون إلى غرب أوروبا حاملين معهم أنفس الكتب القديمة ، وكان غرب أوروبا آنذاك قفراً من العلوم . فكان لهجرة هؤلاء العلماء والفلاسفة إلى هذا الجزء أثر كبير حيث انتشرت فيه العلوم ، وكان انتشارها في القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين، وسمي ذلك العصر بعصر إحياء العلوم .. نستنتج من ذلك أن فتح مدينة القسطنطينية وسقوطها في يد المسلمين سبب من أسباب هجرة علمائها القدامى للغرب .

(٨) ارتفعت أسعار السلع المستوردة من الشرق في أوروبا مثل التوابل والشاي بسبب استيلاء العثمانيين على طرق التجارة المؤدية إلى أوروبا . هذا الأمر دفع الأوربيين إلى البحث عن طرق تجارية جديدة تسهل عليهم استيراد سلع الشرق بدون عناء بعيداً عن سيطرة الإمبراطورية العثمانية . وكان من نتائج ذلك وصول البرتغالي «بارثليموديار» إلى رأس الرجاء الصالح عام ١٤٨٦م ، واكتشاف الأسباني «خريستوفر كولمبس» لأمريكا في عام ١٤٩٢م ، واكتشاف البرتغالي «فاسكو دي جاما » الطريق المؤدي إلى بلاد الهند في عام ١٤٩٧م . إذن نصل إلى حقيقة تاريخية هي أن فتح القسطنطينية كان سبباً من أسباب الكشوف

الجغرافية التي قام بها الأوربيون في القرن الخامس عشر الميلادي .

(٩) كان سقوط هذا الحصن في يد العثمانيين حدثاً هاماً إهتزت له بلاد أوربا النصرانية من أقصاها إلى أقصاها رأت فيه نذيراً مزعجاً بتجدد قوى الشرق الإسلامي الذي تعتبره أوروبا عدوها اللدود .

(١٠) شعرت البابوية - بالرغم مما كان بينها وبين مدينة القسطنطينية من أسباب النفور والتوتر - أنها فقدت أعظم عضد وأمنع معقل يحمي النصرانية في المشرق ، وشعرت الأمم النصرانية كلها بأنها تواجه موجة جديدة من الخطر الداهم الفياض بالويل والمحن، تقوده الامبراطورية الإسلامية العثمانية .

(١١) إن سقوط مدينة القسطنطينية في يد العثمانيين

يعتبر من الأسباب المباشرة التي نتج عنها سقوط كل من جنوه والبندقية وغيرهما من المدن الإيطالية والسر في ذلك يرجع إلى أن عظمة هاتين المدينتين وثروتهما كانت متوقفة على تجارتهما مع مدينة القسطنطينية ومصر . ومصر سقطت هي الأخرى في يد الأتراك فصار الأتراك يفرضون الضرائب الباهظة على التجارة ولم يتوقفوا عند هذا الحد بل سيطروا على الطرق التجارية المؤدية لإيطاليا وجعلوها غير آمنة .

(١٢) تمزق الكنيسة الشرقية بحيث لم يبق لها وجود .

(١٣) ظهور المسألة الشرقية على مسرح الأحداث السياسية ، «حروب صليبية ضد العثمانيين» (١) .

---

(١) زياده ، محمود محمد ، المرجع السابق ، ص : ٣١ .

(١٤) تدفق المسلمون من شتى البلدان الإسلامية قاصدين العاصمة الجديدة ـ التي ما لبثت أن خضع لها معظم المسلمين في العالم لكي يستغلوا مزايا المدينة التجارية ذات الموقع الجغرافي الفريد ولكي يفيدوا من الأوقاف التي أنشأها هناك محمد الفاتح وخلفاؤه لخدمة العلم وطلابه ، وسرعان ما انتهت مدينة القسطنطينية إلى أن تصبح المركز الفكري الأول في العالم الإسلامي .

ثالثاً : آثار الفتح على الدولة العثمانية :

(١) أصبحت دولة العثمانيين من الإمبراطوريات العظيمة في التاريخ التي تهابها الدول المجاورة لها والبعيدة عنها على حدٍ سواء .

(٢) نال العثمانيون الأتراك بفتحهم لمدينة القسطنطينية فخراً طالما تطلع إليه عظماء الإسلام من قبلهم منذ القرن الأول الهجري .

(٣) أتاح فتح مدينة القسطنطينية للعثمانيين ألواناً من الانتصارات الأخرى في العالم الإسلامي إذ اعتبر الانضمام إلى العثمانيين نوعاً من الوحدة الإسلامية لا من الخضوع لمستعمر غريب ، وذلك في بعض الأقطار العربية والإسلامية بينما في أقطار مصر والعراق وسوريا حدثت مقاومة شديدة ضد الدولة العثمانية ، والدليل حدوث موقعة « جالديران » عام ١٥١٤ م في العراق ، ومعركة «مرج دابق» عام ١٥١٦م في بلاد الشام ، وموقعة « الريدانية » في مصر عام ١٥١٧ م

(٤) ازداد العثمانيون شهرة عظيمة من الناحية العسكرية بعد فتحهم لمدينة القِسْطَنْطِيْنِيَة المنيعة ، وأصدق دليل علي ذلك ما قاله حاكم «غلطة» في رسالته التي كتبها بعد فتح مدينة القِسْطَنْطِيْنِيَة بشهر ، حيث قال « إن السلطان محمد الفاتح يهدف إلى أن يكون سيد العالم ، وأنه قبل أن تمضي سنتان سيزحف إلى «روما» فإذا لم يأخذ النصارى حذرهم أو تحدث معجزات فإن مأساة مدينة القِسْطَنْطِيْنِيَة في روما» [١] .

(٥) أمر محمد الفاتح أن تبنى جميع الحصون التي تعرضت للدمار ليجعل من هذه المدينة عاصمة لإمبراطوريته ويجعلها تحتل المركز الأول بين مدن

---

[١] الرشيدي ، سالم . المرجع السابق ، ص : ١٥٨ ـ ١٥٩ .

الشرق والغرب ، وهذا ما حصل لهذه المدينة .

(٦) عمل محمد الفاتح بعد فتح المدينة وانتقال رعايتها له على تنظيم أحوال البيزنطيين المغلوبين ، واعترف بجميع السلطات الدينية اليونانية بل أنه زادها قوة بأن وكل إليها أمر القضاء المدني والجنائي وتطبيق أحكامه ، وعين لهؤلاء بطريقاً [١] يتولى شئونهم نيابة عن السلطان ، ونستطيع أن نستنتج من ذلك :

أ ـ أن السلطان محمد الفاتح لا يعارض أهل المدينة المفتوحة في إقامة شعائرهم الدينية والمذهبية.

ب ـ وأن يضمن لهم حرية التصرف في أملاكهم .

ج ـ ودعاهم إلى انتخاب (بطريق) لهم تكون له

---

[١] هو جورج سكولاريوس .

ولأساقفته السلطة القانونية التامة في جميع قضايا النصارى المدنية والجنائية .

(٧) اختار السلاطين العثمانيون من سكان عاصمتهم الجديدة (مدينة القسطنطينية) الأصليين عدداً ليس بالقليل من الموظفين كترجمان الباب العالي أو وزير الخارجية الفعلي ، وترجمان الأسطول وحكام بعض الأقاليم .

(٨) اقتبس السلاطين العثمانيون من نظم الدولة البيزنطية من سياسية وإدارية وأخذوا مراسم البلاط البيزنطي بكل تفاصيلها حتى صح القول عنهم بأن السلطان إنما هو قيصر مسلم .



الخاتمة

وبعد ..

فهذا مجمل لفتح هذا المعقل العظيم ـ مدينة القسطنطينية ، وهنا نشير إلى أن الدولة العثمانية بعد هذا الفتح اكتفت بحدودها ولم تستمر في توسعها في الجبهة الأوربية بل تحولت من موقف الهجوم إلى موقف الدفاع ، ولهذا أخذت تبحث عن ميادين أخرى للنشاط والتوسع .

ومن هنا نجد المؤرخين ينقسمون في آرائهم حول هذا الموقف . ففريق منهم يرى أن بحثها عن ميادين جديدة يتفق مع المنطق التاريخي فلكل دولة مدى معين في التوسع ، ودولة مركزها مدينة القسطنطينية من المعقول أن تقف عند هذا الحد الأوربي .

أما الفريق الآخر فيرى أن الأحداث التي دارت داخل الشرق العربي أو حوله هي التي جذبت الدولة العثمانية إلى

الدخول في ميدان الشرق الإسلامي ، والاكتفاء بما حصلت عليه في الغرب الأوربي ، أي أن فتح مدينة القسطنطينية شجعها على النظر إلى التوسع العسكري في الشرق على يد أشهر السلاطين العثمانيين،وهما « سليم الأول ، وابنه السلطان سليمان القانوني»

وختاماً .. أرجو أن ينفع الله بهذا البحث الدارسين والباحثين من خلال ما جمعته من معلومات .. أرى بشكل مختصر أنها لم تتوفر في كتاب واحد .

والله أسأل التوفيق والسداد ، وهو ولي ذلك والقادر عليه . وصلى الله على نبينا محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه أجمعين .

المؤلف

فهد بن عايش بن محمد الطيار

تبوك في ١ / ٨ / ١٤٢٢هـ

المراجع

(١) ماجد ، عبد المنعم . التاريخ السياسي ، ط ١ - ١٩٨٢م ، طباعة ونشر مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة - مصر .

(٢) ستيڤن رنسيمان . الحضارة البيزنطية ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، طبعة ١٩٩٧م ، طباعة ونشر مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة - مصر .

(٣) بروكلمان كارل : تاريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة نبيه أمين فارس ، ومنير بعلبكي . ط ٢ - ١٩٧٧م ، طباعة دار الحقيقة للطباعة والنشر ، الناشر دار العلم للملايين ، بيروت - لبنان .

(٤) شلبي ، أحمد : موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ، طباعة ١٩٧٩م ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة - مصر .

(٥) الرشيدي ، سالم : محمد الفاتح ، ط ٢ - ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م ، مكتبة الإرشاد ، جدة - المملكة العربية السعودية .

(٦) محمود ، عبد الوهاب محمود : التاريخ الحديث ، ط ١ - ١٩٧١م ، القاهرة - مصر .

(٧) المحامي : محمد فريد بك : تاريخ الدولة العثمانية ، ط ٣ - ١٩١٢م ، القاهرة - مصر .

(٨) عنان ، محمد عبد الله : مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام ، ط ٣ - ١٩٥٢م ، القاهرة - مصر .

(٩) الشريقي ، إبراهيم : التاريخ الإسلامي خلال أربعة عشر قرناً ، ط ١ - ١٩٦٩م ، القاهرة - مصر .

(١٠) كلتي ، بربباردين . فتح القسطنطينية ، ترجمة : شكري محمد نديم .

(١١) عاشور ، سعيد عبد الفتاح : حضارة ونظم أوروبا في العصور الوسطى ، ط ١ ـ ١٩٧٦م ، دار النهضة العربية للطباعة ، بيروت ـ لبنان .
(١٢) حسن ، ، إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ، ط ١٤ ـ ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م ، الناشر دار الجيل ، بيروت ـ لبنان ، ومكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ـ مصر .
(١٣) عاشور ، سعيد عبد الفتاح : أوروبا العصور الوسطى ، ط ٤ ـ ١٩٦٦م ، طبع ونشر مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ـ مصر .
(١٤) إدوارد ، جيبون : اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها . ترجمة محمد سليم سالم ، المطبعة الثقافية ، القاهرة ـ مصر .

(١٥) زيادة ، محمود محمد : تاريخ الدولة العثمانية وحاضر العالم الإسلامي ، ط ٢ ـ ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م ، مؤسسة الطالب للطباعة والترجمة ، الرياض ـ المملكة العربية السعودية .

(١٦) علي ، سيد رضوان : السلطان محمد الفاتح ، ط ١ ـ ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م ، الدار السعودية للنشر والتوزيع ، الرياض ، المملكة العربية السعودية .

(١٧) عمر ، كمال توفيق : تاريخ الدولة البيزنطية ، ط ١ ـ ١٩٩٧م ، دار المعرفة الجامعية ، السويس ـ مصر .

(١٨) مؤنس ، حسن : أطلس تاريخ الإسلام ، ط ١ ـ ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م ، الزهراء للإعلام العربي ، القاهرة ـ مصر .

(١٩) الحموي ، ياقوت : معجم البلدان ، تحقيق : فريد عبد

العزيز الجندي ، ط ١ ـ ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م ، دار الكتب العلمية ، بيروت ـ لبنان .
(٢٠) ابن حنبل ، أحمد : المسند ، طبعة ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م ، الناشر بيت الأفكار الدولية ، الرياض ، المملكة العربية السعودية .
(٢١) عثمان ، إبراهيم القرشي ، وآخرون : الموسوعة العربية العالمية ، ط ١ ، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م ، طباعة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع ، الرياض ـ المملكة العربية السعودية .
(٢٢) المعلوف ، لويس : المنجد في اللغة والإعلام ، ط ٢٨ ـ ١٩٨٦م ، الناشر : دار المشرق ، بيروت ـ لبنان .



الفهرس